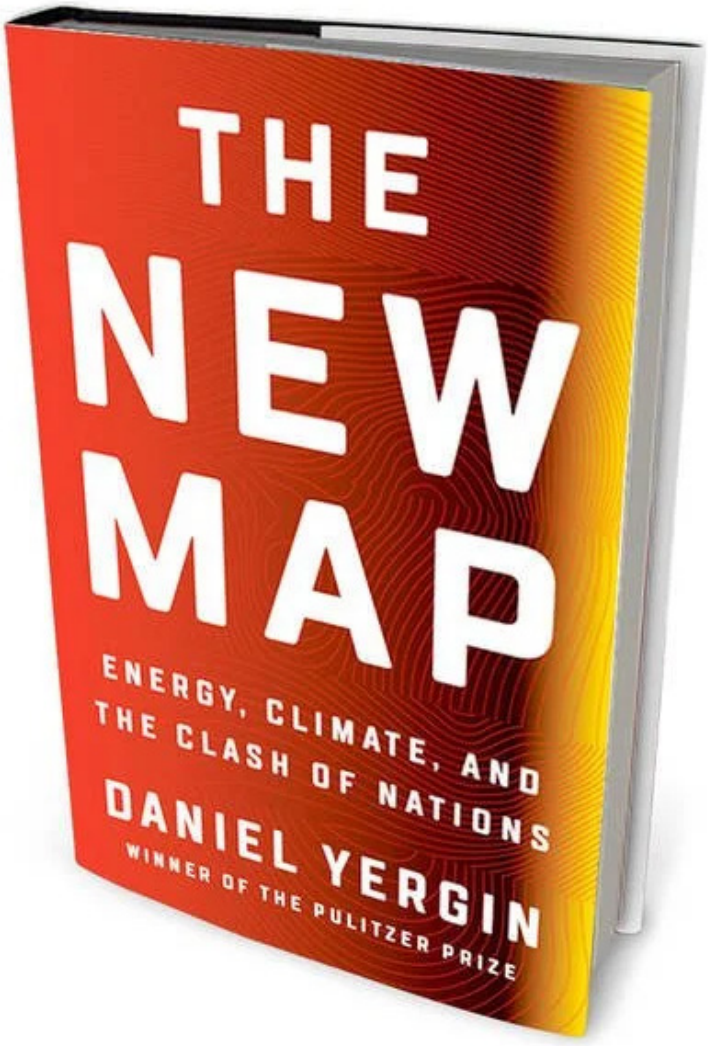

«الخريطة الجديدة: الطاقة، المناخ، وصدام الأمم»

The New Map: Energy, Climate, and the Clash of Nations

تأليف: Daniel Yergin
سنة النشر: 2020 (Penguin Press)

- عرض: وفاء فوزي حمزة

المقدمة

يُعدّ هذا الكتاب استمراراً لمسيرة الكاتب دانيال يَرجن، الحائز على جائزة بوليتزر عن كتابه الأشهر The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power. لكن في The New Map يقدّم يَرجن خريطة جديدة لفهم العالم بعد سلسلة من التحولات العميقة التي هزّت أسواق الطاقة والعلاقات الدولية.

الكتاب يدمج بين التاريخ الجيوسياسي واقتصاديات الطاقة والتغير المناخي، ليبيّن كيف أعادت هذه العوامل رسم خطوط التماس بين القوى الكبرى، وكيف باتت الموارد الطاقوية (النفط، الغاز، الطاقة المتجددة) تتداخل مع صعود الصين، وعودة روسيا للصراعات العالمية، وصراعات الشرق الأوسط، وتحديات المناخ العالمي.

أهمية الكتاب تكمن في كونه لا يقتصر على سرد تاريخ الطاقة، بل يعرض خريطة استراتيجية جديدة تعكس ديناميكيات القوى في القرن الحادي والعشرين: من النفط الصخري الأمريكي الذي جعل موقف واشنطن أكثر قوة في سوق الطاقة، إلى تنافس الولايات المتحدة والصين على النفوذ البحري والتكنولوجي، مروراً بعودة روسيا كلاعب محوري في سوق الغاز، وانتهاءً بالتحولات المناخية التي تفرض إعادة التفكير في مزيج الطاقة المستقبلي.

يناقش الكتاب الانتقال من التركيز على فكرة «ذروة النفط» (Peak Oil) إلى إدراك أن المعركة المستقبلية تدور حول «ذروة الطلب» (Peak Demand)، حيث لم يعد السؤال هو مدى توفر النفط، بل مدى استمرار الحاجة إليه في ظل التحولات المناخية والتكنولوجية. بهذا المعنى، فإن المقدمة لا تكتفي بوضع إطار زمني لرحلة الطاقة خلال العقود الأخيرة، بل تشكّل أيضاً دعوة للقارئ لفهم كيف تُعاد صياغة خريطة العالم وفق معادلات جديدة تتقاطع فيها الطاقة مع السياسة والمناخ والتكنولوجيا.

نقدم هنا عرضا لفصول الكتاب بالتسلسل:

الفصل الأول: خريطة أمريكا الجديدة

شهدت الولايات المتحدة تحولاً استراتيجياً هائلاً بفضل ثورة النفط والغاز الصخري، التي قامت على تقنيتي التكسير الهيدروليكي والحفر الأفقي. هذا التحول جعلها تنتقل من كونها أكبر مستورد للطاقة إلى أكبر منتج عالمي للنفط والغاز، وهو ما أعاد رسم خريطتها الداخلية والخارجية.

اقتصادياً، ساهمت هذه الطفرة في خفض الأسعار العالمية، وخلقت مئات الآلاف من فرص العمل داخل ولايات مثل تكساس وداكوتا الشمالية، لكنها أثارت في المقابل جدلاً سياسياً وبيئياً واسعاً حول مخاطرها.

سياسياً وجيوسياسياً، قلّصت واشنطن اعتمادها على نفط الشرق الأوسط، وأصبحت منافساً رئيسياً في سوق الغاز الطبيعي المُسال، خاصة في أوروبا وآسيا، مما عزز قدرتها على مواجهة روسيا وقطر. كما منحتها هذه المكانة الجديدة استقلالية أكبر في صنع القرار الخارجي، وحوّلت الطاقة إلى أداة من أدوات قوتها الناعمة لإعادة تشكيل التحالفات.

يخلص يَرجن إلى أن ما حدث لم يكن مجرد إضافة جديدة إلى سوق الطاقة، بل إعادة تشكيل كاملة للخريطة العالمية، حيث انتقلت الولايات المتحدة من موقع الضعف والاعتماد إلى موقع الندّية والمنافسة، بما يفتح الباب أمام مرحلة جديدة من الصراع والتوازنات الدولية.

الفصل الثاني: الصين وبحر الصين الجنوبي

يركّز يَرجن في هذا الفصل على الصعود الصيني بوصفه أحد أهم ملامح «الخريطة الجديدة»، حيث أصبحت بكين المستورد الأكبر للطاقة في العالم، ومع ذلك فإن اعتمادها الكبير على الخارج جعلها تشعر بـ «هشاشة استراتيجية». فالنمو الاقتصادي السريع ضاعف من حاجتها إلى النفط والغاز، الأمر الذي دفعها إلى البحث عن مصادر متنوعة عبر آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

يشرح المؤلف أن بحر الصين الجنوبي يُمثل العقدة الأبرز في هذه المعادلة. فمن خلاله تمر نسبة ضخمة من واردات الصين من النفط والغاز، وهو ما يفسر تمسك بكين ببسط نفوذها العسكري والسياسي في هذه المنطقة، حتى وإن أدى ذلك

إلى صدام مع الولايات المتحدة وجيرانها الإقليميين مثل فيتنام والفلبين.

على الجانب الآخر، تعمل الصين على مشروع الحزام والطريق كأداة استراتيجية لتأمين إمدادات الطاقة وربطها بالبنية التحتية العالمية. يشمل هذا المشروع بناء موانئ، خطوط أنابيب، وممرات تجارية تعزز من قدرة بكين على تجاوز الاختناقات البحرية التي قد تعرّض أمنها الطاقوي للخطر.

كما يسلط يَرجن الضوء على أن المنافسة بين الولايات المتحدة والصين لم تعد اقتصادية فقط، بل أخذت طابعاً جيوسياسياً شاملاً. واشنطن ترى في التوسع الصيني تهديداً لحرية الملاحة وللنظام الدولي القائم، فيما تعتبر بكين أن تأمين الطاقة حق سيادي لا يمكن التفريط فيه.

يخلص الفصل إلى أن "الخريطة الصينية" تُعيد تشكيل ميزان القوى في آسيا والعالم، حيث تسعى الصين إلى ضمان أمنها الطاقوي عبر السيطرة على الطرق البحرية والاستثمارات الخارجية، في حين تتحرك الولايات المتحدة للحفاظ على موقعها المهيمن وضمان استمرار انسيابية التجارة العالمية. هذا التنافس يضع العالم أمام أحد أخطر خطوط الصدع في القرن الحادي والعشرين.

الفصل الثالث: روسيا والطاقة كسلاح

يركّز يَرجن في هذا الفصل على الدور المحوري للطاقة في الاستراتيجية الروسية، موضحاً كيف تحوّلت روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى قوة عالمية تعتمد على النفط والغاز بوصفهما الركيزة الأساسية لاقتصادها ونفوذها السياسي. فالعوائد الهائلة من صادرات الطاقة مكّنت الكرملين من إعادة بناء قوته العسكرية والدبلوماسية، ومنحته أدوات ضغط فعالة على جيرانه وأوروبا.

يشير المؤلف إلى أن الغاز الطبيعي يمثل السلاح الأكثر تأثيراً بيد موسكو، خاصة عبر شبكة الأنابيب

التي تربط روسيا بالاتحاد الأوروبي مثل نورد ستريم (Nord Stream). هذه الشبكات لم تُستخدم فقط كمشاريع اقتصادية، بل كأوراق ضغط استراتيجية، إذ تستطيع روسيا أن تُكافئ أو تعاقب الدول من خلال تدفق الغاز وأسعاره.

كما يتناول يَرجن الشراكة الروسية مع منظمة أوبك بلس، والتي سمحت لها بالتنسيق مع السعودية في إدارة أسعار النفط، وهو ما عزز من مكانة موسكو كقوة لا غنى عنها في سوق الطاقة العالمي. هذه العلاقة الجديدة منحت روسيا مجالاً أوسع للمناورة، وأثبتت أنها قادرة على التأثير في التوازنات خارج حدودها التقليدية.

من جهة أخرى، يبرز الكتاب أن روسيا لا ترى الطاقة فقط كعنصر اقتصادي، بل كجزء من هوية وطنية واستراتيجية أمن قومي. فالنفط والغاز هما ما يمنحها القدرة على مواجهة العقوبات الغربية، والتدخل في مناطق مثل سوريا وأوكرانيا، وإعادة فرض نفسها كقطب عالمي منافس للولايات المتحدة.

ويخلص يَرجن إلى أن «الخريطة الروسية» تُظهر أن الطاقة ليست مجرد سلعة في السوق الدولية، بل هي أداة من أدوات الجغرافيا السياسية، وسلاح يمكن لموسكو أن تستخدمه بمرونة بين الدبلوماسية والردع. هذا يجعل من روسيا لاعباً لا يمكن تجاهله في أي نقاش حول مستقبل الطاقة أو استقرار النظام الدولي.

الفصل الرابع: الشرق الأوسط المتغير

يتناول دانيال يَرجن في هذا الفصل التحولات العميقة التي يشهدها الشرق الأوسط في ظل تغير الخريطة العالمية للطاقة. فبعد أن كان الخليج العربي مركز الثقل في إمدادات النفط لعقود طويلة، تراجع موقعه النسبي في الاستراتيجية الأمريكية نتيجة ثورة النفط الصخري، ما قلل اعتماد واشنطن على المنطقة وفتح المجال أمام قوى مثل روسيا والصين لتعزيز نفوذها. وفي الوقت نفسه، تسببت الأزمات الداخلية والإقليمية ـ من تداعيات الربيع العربي إلى الحروب في ليبيا وسوريا واليمن وصعود تنظيم داعش ـ في جعل النفط والغاز جزءاً من الصراع، سواء كمورد اقتصادي أو كأداة تمويل. كما يستعرض يَرجن التنافس السعودي–الإيراني باعتباره أحد المحركات الرئيسية لعدم الاستقرار، ويفصّل في محاولات دول الخليج تنويع اقتصاداتها عبر رؤى مثل «السعودية 2030»، إدراكاً لخطورة الاعتماد الأحادي على النفط. ويخلص الفصل إلى أن الشرق الأوسط، رغم بقائه لاعباً أساسياً في سوق الطاقة، لم يعد المركز الذي لا غنى عنه كما في السابق، بل بات ساحة معقدة تتقاطع فيها صراعات النفوذ الإقليمي مع الضغوط العالمية للتحول نحو الطاقة النظيفة، مما يجعل موقعه على «الخريطة الجديدة» أقل استقراراً وأكثر تقلباً.

الفصل الخامس: المناخ والطاقة النظيفة

يركّز يَرجن في هذا الفصل على التحول المناخي بوصفه عاملاً مركزياً في إعادة تشكيل مستقبل الطاقة والجغرافيا السياسية. فبعد عقود من التركيز على تأمين الإمدادات النفطية، أصبح النقاش العالمي يدور حول تقليل الانبعاثات والانتقال إلى مصادر طاقة أنظف. يوضح الكاتب أن التغير المناخي لم يعد قضية بيئية فقط، بل أصبح أجندة سياسية واقتصادية تحركها الحكومات، الشركات، والمجتمع المدني، وتؤثر مباشرة في الاستثمارات والابتكار.

يستعرض الفصل بروز اتفاقية باريس للمناخ (2015) باعتبارها نقطة تحول، حيث التزمت الدول بخفض انبعاثاتها الكربونية. كما يناقش الدور المتنامي للطاقة المتجددة مثل الشمسية والرياح، إضافة إلى التقدم في تقنيات البطاريات والسيارات الكهربائية، التي تهدد مكانة النفط في قطاع النقل. ومع ذلك، يشير يَرجن إلى أن التحول الطاقوي ليس خطياً ولا سريعاً، بل يتخلله صراع بين الواقع الاقتصادي القائم على الوقود الأحفوري، والضغوط السياسية والاجتماعية التي تدفع باتجاه التحول الأخضر.

ويؤكد المؤلف أن المناخ بات «خريطة جديدة» بحد ذاته، إذ يفرض إعادة حسابات على كل دولة وشركة طاقة: من كيفية إدارة الاستثمارات في النفط والغاز، إلى التفكير في بدائل مثل الهيدروجين والتقنيات منخفضة الكربون. وفي الوقت نفسه، يُبرز التناقض بين الدول الصناعية التي تقود أجندة المناخ، والدول

النامية التي ما زالت تعتمد على الوقود الأحفوري لتحقيق النمو.

ينتهي الفصل إلى أن معركة المناخ ستحدد جزءاً كبيراً من توازن القوى في القرن الحادي والعشرين، ليس فقط عبر إزاحة النفط تدريجياً، بل أيضاً عبر خلق صناعات جديدة ومراكز نفوذ مرتبطة بالتكنولوجيا والابتكار الطاقوي.

الفصل السادس: المستقبل المفتوح

يُختتم الكتاب بفصل استشرافي يضع عدة سيناريوهات محتملة لمستقبل الطاقة والعلاقات الدولية، موضحاً أن العالم لم يعد يسير وفق خريطة مستقرة، بل يعيش إعادة رسم مستمرة بفعل الابتكارات التكنولوجية، الأزمات الجيوسياسية، وضغوط المناخ.

يشير يَرجن إلى أن مستقبل الطاقة سيتحدد من خلال ثلاثة مسارات متداخلة:

1. استمرار دور النفط والغاز: رغم كل الضغوط المناخية، يظل الوقود الأحفوري المصدر الرئيس للطاقة في العقود القادمة، خاصة في النقل والبتروكيماويات.

2. التحول الطاقوي المتدرج: بروز مصادر متجددة مثل الشمسية والرياح، إضافة إلى الهيدروجين والسيارات الكهربائية، كجزء متنامٍ من المزيج الطاقوي العالمي.

3. أجندة المناخ والابتكار: تصاعد الاستثمارات في تقنيات خفض الانبعاثات والحياد الكربوني، بما يعيد تشكيل الصناعات وأسواق العمل وميزان القوى بين الدول

كما يناقش التنافس بين الولايات المتحدة والصين كعامل رئيسي سيرسم مستقبل الخريطة العالمية، إذ تسعى واشنطن للحفاظ على موقعها كقوة طاقوية مهيمنة، بينما تستخدم بكين مبادرة الحزام والطريق والتكنولوجيا الخضراء لتعزيز نفوذها. أما روسيا، فستظل تعتمد على الطاقة كأداة نفوذ، لكنها تواجه تحديات على المدى الطويل مع صعود البدائل.

يؤكد يَرجن أن «خرائط المستقبل» لا يمكن اختزالها في مسار واحد، بل هي شبكة من المسارات المتوازية والمتقاطعة. فالعالم قد يشهد انتقالاً تدريجياً نحو الطاقات النظيفة، لكن النفط والغاز سيبقيان جزءاً لا غنى عنه في الاقتصاد العالمي لعقود قادمة. وفي النهاية، يشدد المؤلف على أن الطاقة والمناخ والجغرافيا السياسية ستظل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، وأن فهم «الخريطة الجديدة» يتطلب المرونة والقدرة على التكيف مع عالم سريع التغير.